التربية الاسلامية

للأستاذ محمد على مصطفى
المفتش بوزارة المعارف

مقدمة : معارف العرب فى الجاهلية .

غلبت الأمية على العرب ، فلم تكن لهم علوم مدونة ، ولا فنون متدارسة ، ومبلغ ماوصلوا إليه من العلم لايتجاوز مسائل متفرقة ، اهتدوا إليها بتجربتهم ، أو ورثوها عن آبائهم . أو وصلت إليهم عن الأمم المجاورة لهم : كالبابليين ، والفينيقيين ، والفرس ؛ إذ كانت طبيعة بلادهم تدعوهم إلى الارتحال والنجعة ، وطلب القوت ، أنى وجد ، فكانوا أهل بداوة ، ورعاة ماشية ، يزدحمون عند موارد الماء ، ويتنازعون مساقط الغيث ، ومنابت الكلأ ، وتشب بينهم الحرب ، فيقتل بعضهم بعضا ، وتملأ الضغينة القلوب ، وتتدابر القبائل ، وتتناثر العشائر ، وتتفرق الأهواء . ولاشك أن حياة كهذه لاتساعد على نشأة العلم ، ولا تدع وقتا للتفكير الهادىء المنظم .

لذلك نجد المأثور عن العرب لايعدو شذرات متفرقة ، مرجعها فى الغالب حدس وتخمين ، أوخيال شارد ، أو تلقين الكبير الصغير ، أوتجربة عملية ، أو أخذ عن الأمم المجاورة .

وقد شملت معارفهم الظاهرات السماوية ، فعرفوا النجوم ومواقعها ، ومنازل الشمس والقمر ، ودرسوا الأنواء ومهاب الرياح ، وأدركوا خصائص كل نوع منها ، وميزوا بين مطير السحاب وكهامه ، واعتقدوا فى الكهانة وزجر الطير ، وبرعوا فى تتبع الآثار ، وتعبير الرؤيا ، وعالجوا مرضاهم بالعزائم والرقى ، والعقاقير والأشربة ، والحجامة والكى ونحوها . وبديهى أن هذه

كلها لم تصل إلى درجة القوانين المضبوطة ، ولم ترتق إلى درجة العلم المنظم .

وقد اقتضت طبيعة الحياة العربية ، وما كان للعرب من صفاء المزاج ، وحدة الذهن ، وقوة الخيال ، وما رزقوه من سماء صافية ، تتلألأ فيها الكواكب ، وأفق واسع — أن يمتازوا بالبلاغة واللسن ، وحسن إيراد الحجة ، وضرب المثل ، والإبداع فى التصوير ، والقدرة على إثارة المشاعر ، واستنهاض همة القبيلة ، للأخذ بالثأر ، ودفع العار ، والذود عن الحياض : فكان ذلك سجيتهم : لا يتكلفون القول ، ولا يظهر فى كلامهم أثر الصنعة ، بل كانت المعانى التى تمليها عليهم البيئة تتوارد على أذهانهم سريعة ، والألفاظ تتسابق إلى ألسنتهم مسترسلة ، ولهذا كانت الخطابة عدتهم ، والشعر ديوانهم ، سجلوا فيه أيامهم ، وفخروا بأحسابهم وأنسابهم ، وأشادوا بذكر أبطالهم ، وصوروا وقائعهم ، ووصفوا راحلتهم وسيوفهم ورماحهم ودروعهم ، وتغنوا بحب أوطانهم .

وكان لهم مجالس عامرة بالأدب ، حافلة بالممتع من القصص ، وأسواق عامرة ، يقيمونها فى أيام معروفة كل عام ، يجتمع فيها مصاقع الخطباء وفحول الشعراء ، يتبارون فى القصيد ، ويحتكمون إلى واحد من العرب ، يقرون له بالزعامة فى فنون الكلام ، فيخضعون لحكمه ، وينزلون عند قوله . حكى التاريخ أن النابغة الذبيانى كان يفد على عكاظ أيام الموسم ، فتضرب له قبة حمراء من أدم ، وتأتيه الشعراء ، فتنشده أشعارها ، حتى إذا اعترف لواحدهم بالفضل ، كتبت قصيدته بماء الذهب ، وعلقت على جدران الكعبة ، وسميت بالمعلقة على رواية .

وبعد فهذه معارف العرب فى الجاهلية ، فإذا تأملتها وجدتها وليدة البيئة ، وأثر الإقليم والمزاج ، فلم يكن لهم مدارس يتلقون هذه المعارف فيها ، بل كان الغلام ينشأ كما نشأ أبوه ، وليس له فى الحياة غرض ، إلا أن يحصل على

وسائل العيش ، بالطرق المألوفة بين أهله وعشيرته ؛ لذلك تستطيع أن تقول: إن التربية عند العرب فى الجاهلية — إن صح أن يطلق عليها هذا الاسم — كانت تربية فطرية عملية تقليدية ساذجة ، اقتضتها طبيعة الحياة وضرورة العيش.

على أن هناك جانبا آخر للحياة العربية لا يصح أن نغفله ، لما كان له من أثر فى تهذيب نفوس الناشئين ، وأخذهم بطائفة من الخلال الطيبة . فقد كان العربى شجاعا ، يأبى أن يضام أو يستباح حرمه ، يذود عن عرضه ، ويدفع عمن استجار به ، كان كريما يعز الضيف ، ويؤثره على نفسه ، فيقدم له آخر ما يملك ، حتى كان من عادته أن يوقد النار ليلا بجانب خيمته ؛ ليهتدى بها المدلج فى جوف الليل البهيم ، أو يربط كلبه بالقرب من الحى ، حتى يسترحش فينبح . فيسير الأضياف نحوه .

وكان إلى جانب هذا وفيا الى أبعد حدود الوفاء ، عزيز النفس ، شامخا بأنفه ، محبا للحرية ، ذا مروءة ونجدة .

تأصلت هذه الصفات فى نفوسهم ، ففخروا بها ، وراضوا أبناءهم عليها ، وشجعوهم على التمسك بأسبابها ، وتواصوا بها فى شعرهم ونثرهم .

فقد نقل إلينا مؤرخو الأدب ، أن ذا الإصبع العدوانى ، لما حضرته الوفاة ، دعا ابنه أسيدا ونصحه النصح وقال له :

« ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصريخ ، فإن لك أجلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا ، فبذلك يتم سؤددك »

وأوصى حصين بن حذيفة بنى بدر فقال:

«اسمعوا منى ماأوصيكم به : لايتكل آخركم على أولكم ، فإنما يدرك الآخر ما أدركه الأول ، ... واصحبوا قومكم بأجمل أخلاقكم ، ولا تخالفوا فيما اجتمعوا عليه ، فإن الخلاف يزرى بالرئيس المطاع ، وإذا حادثتم فأربعوا ، ثم قولوا الصدق ، فإنه لاخير فى الكذب ، وصونوا الخيل ؛ فإنها حصون الرجال ، وأطيلوا الرماح ؛ فإنها قرون الخيل ، وأعزوا الكبير بالكثير ، . . . وأعجلوا الضيف بالقرى ؛ فإن خيره أعجله .

ويقول المرقش الأكبر :

إن تبتدر غاية يوما لمكرمة تلق السوابق منا والمصلينا
وليس يهلك منا سيد أبدا إلا أفتلينا غلاما سيدا فينا
إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ولو نسام بها فى الأمن أغلينا
إنا لمن معشر أفنى أوائلهم قيل الكماة : ألا أين المحامونا؟
إذا الكماة تنحوا أن يصيبهم حد الظبات وصلناها بأيدينا

وبعد فهذه ناحية من آداب العرب فى جاهليتهم ، وتلك بعض أخلاقهم فى بداوتهم ، رفعتهم إلى ذروة العلياء ، وجعلت جيرانهم يخشون بأسهم ، ويرهبون صولتهم ، ولقد جاء الإسلام فعالج سوآتهم ، وزاد هذه الصفات رسوخا فى نفوسهم ، واستقرارا فى قلوبهم ، ثم جمع كلمتهم على الحق ، وآخى بينهم ، ونصب لهم غرضا يقصدون إليه . ثم استفرهم إلى حروب الأمم المجاورة ، فنفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم حتى كتب لهم الفوز فى كل مكان ، وذلك فضل الله ، يؤتيه من يشاء والله ذو فضل عظيم .

القراءة والكتابة

كان رسول الله ﷺ أميا ، بعثه الله إلى العرب خاصة ، وإلى الناس كافة ، وأيده بالمعجزة الخالدة ، فأنزل عليه قرآنا عربيا غير ذى عوج ، شرع لهم فيه ماوصى به إبراهيم ونوحا ؛ ولذلك ازدادت عناية العرب بالقراءة والكتابة ،

منذ نزل القرآن الكريم ، فقد كانت الأمة العربية أمية . ولكن ليس معنى ذلك أنه لم يكن من أبناء العرب من يستطيع أن يخط حرفا ، أو يقرأ كلمة ، كما يتوهم من إرسال الحكم على إطلاقه .

والواقع أن الكتابة كانت معروفة فى جهات من شبه الجزيرة العربية كالأنبار ، ومن أهلها تعلم أهل الحيرة ، وعنهم أخذ بشر بن عبد الملك الكندى ، وكان يتردد على الحيرة كثيرا ، وحدث أن ذهب بشر إلى مكة فى بعض شأنه ، فلقيه سفيان بن أمية ، وأبو قيس بن عبد مناف ، فأراهما الخط ، فطلبا منه أن يعلمهما ، فكتبا ، وعلما أهل مكة .

ثم خرج ثلاثتهم إلى الطائف فى تجارة لهم ، وكان فى صحبتهم غيلان بن سلمة الثقفى ، فتعلم الخط منهم ، ثم فارقهم بشر إلى ديار مضر ، فعلم بعض أهلها ، ثم أتى الشام ، فتعلم الخط منه ناس هناك . وكان يتردد على وادى القرى — واد فى شمال المدينة — رجل من طابخة كلب له علم بالخط ، ثم طاب له المقام فى الوادى ، فاتصل به أهله ، وتعلموا عنه الكتابة .

وعلى هذا النحو وجدت القراءة والكتابة طريقا إلى بعض الجهات فى شبه الجزيرة ، حتى إذا جاء الإسلام كان فى بعض القبائل المختلفة عدد قليل يعرف القراءة والكتابة . روى الواقدى عن خالد بن إلياس قال : « دخل الإسلام وفى قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب ، منهم عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ،

روى عن الأصمعى قال :

« أول من كتب بالعربية مرامر بن مرة ، من أهل الأنبار ، ومن الأنبار انتشرت فى الناس »

وعنه قال :

« ذكروا أن قريشا سئلوا من أين لكم الكتاب ؟ قالوا : من أهل الحيرة . وقيل لأهل الحيرة : من أين لكم الكتاب ؟ قالوا من الأنبار » انتهى .

من كتاب المعارف لابن قتيبة

وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة الجراح ، وطلحة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وحاطب بن عمرو ، أخو سهيل بن عمرو العامرى من قريش ، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، وأبان بن سعيد بن العاص ابن أمية ، وخالد بن سعيد أخوه ، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح العامرى ، وحويطب بن عبد العزى العامرى ، وأبو سفيان بن حرب بن أمية ، ومعاوية ابن أبي سفيان ، وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف ، ومن حلفاء قريش العلاء بن الحضرمى »

وكذلك كان فى الأوس عدة نفر يعرفون القراءة والكتابة ، منهم سعد ابن عبادة ، والمنذر بن عمر ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ورافع بن مالك ، وأسيد بن خضير ، وبشير بن سعد ، وسعد بن الربيع ، وغيرهم .

وكان من بين هؤلاء من يجمع بين معرفة الكتابة العربية والكتابة العبرية والسريانية ، كزيد بن ثابت الأنصارى ، كاتب الوحى لرسول الله ﷺ ، روى عن خارجة عن أبيه قال « أتى بى إلى النبى ﷺ مقدمه المدينة ، فقيل: هذا من بنى النجار ، وقد قرأ سبع عشرة سورة ، فقرأت عليه فأعجبه ذلك ، ثم أمرنى رسول الله ﷺ أن أتعلم له كتاب يهود ، وقال: إنى لا آمن يهودا على كتابى . فلم يمر بى نصف شهر حتى تعلمته . فكنت أكتب له إلى يهود ، وإذا كتبوا اليه قرأت كتابهم » وعن زيد بن ثابت قال : قال له النبى ﷺ : إنى أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا على أو ينقصوا ، فتعلم السريانية . فتعلمتها فى سبعة عشر يوما » ولذا عده بعض مؤرخى الحضارة الإسلامية أول مترجم فى الإسلام .

وكان إلى جانب هؤلاء وأولئك عدد من النساء يعرفن القراءة وحدها ، أو القراءة والكتابة معا ، فمن عرفن القراءة والكتابة معا الشفّاء بنت عبدالله العدوية من رهط عمر بن الخطاب ، حتى روى عن النبى ﷺ أنه قال لها: « ألا

تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة » وكانت الشفاء كاتبة فى الجاهلية ، ومنهن أيضا حفصة زوج الرسول ﷺ ، وأم كلثوم بنت عقبة ، وكريمة بنت المقداد ، وكانت عائشة — رضوان الله عليها — تقرأ المصحف ولا تكتب ، وكذلك كانت أم سلمة .

وليس هناك شك فى أن الناس فى الجاهلية كانوا يقدرون الكتابة قدرها ، يدلنا على ذلك ما كانوا يفعلونه بالقصائد المطولة — إذا نزلت منهم منزلة الاستحسان — من كتابتها وتعليقها على جدران الكعبة ، وأنهم كانوا يسمون من يجمع إلى معرفة الكتابة الرمى والعوم « كاملا » ومن أطلق عليهم هذا الوصف سويد بن الصامت ، ورافع بن مالك ، وسعد بن عبادة ، وأسيد بن حضير ، وأكبر الظن أن تعظيمهم للكتّاب واحترامهم لهم ، هو الذى دفع عبدالله بن سعد بن أبى السرح ، إلى أن يرتد عن الإسلام . ويرجع إلى مكة ، ويقول لقريش : إنه يستطيع الإتيان بمثل ما يأتى به محمد ، بعد أن أخذ عليه أنه يحرف ما يمليه عليه الرسول ، إذ كان يملى عليه الظالمين ، فيكتب الكافرين ، ويملى عليه سميع عليم ، فيكتب غفور رحيم ، وأشباه ذلك ، ولكنه أسلم بعد ما كان منه من الردة ، وولاه عثمان مصر ، إذ كان أخاه من الرضاع .

يتبع

محمد على مصطفى